# عمله فى الرســـالة

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التى أتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ؛ فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلى دائماً أنى رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ... »

« الرافعى »

لم يعمل الرافعى فى صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل حبله بالرسالة ؛ فإن مذهبه الأدبى لم يكن يعينه على ذلك ؛ وقد قدَّمتُ القول عن طريقته فى الكتابة ؛ وما يتسع الوقت لمن يكون هذا مذهبه فى الإنشاء أن يعمل فى صحيفة من الصحف تظهر لقرائها فى مواعيد رتيبة ...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات للهلال والمقتطف وغيرهما فى فترات متباعدة إذا وجد فى نفسه حافزاً للكتابة ، أو إذا دعته صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقيقاً بالكتابة ...

فلما دعته الرسالة إلى الاشتراك فى تحريرها وحدّدتْ له عمله وجزاءه ، تردد فى الجواب ؛ لكنه لم يلبث أن لبَّى نداءها ، لعله يستعين بما يحصل من أجر الكتابة فى الرسالة على أمر من أمره ...

كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب فى جامعة ليون — فرنسا — على نفقة جلالة الملك ، ولكن الإيراشي باشا لأمر ما ، قطع عنه المعونة الملكية وليس بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ؛ فحمل الرافعى بذلك من الهمّ ما حمل ، إذ لم يكن له طاقة مالية تعينه على الإنفاق على ولده فى فرنسا ؛ فمن ذلك أجاب « الرسالة » إلى ما طلبته ... !

كان ذلك فى ربيع سنة ١٩٣٤

فظل يكتب لها كل أسبوع مقالة أو قصة ؛ لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة ، ومات وهو يتهيأ لكتابة مقالته الأسبوعية ، ولكن القضاء عاجله فخلّفها على مكتبه ورقة بيضاء ... !

وسأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التى أملاها علىّ الرافعى فى الفترة التى صحبته فيها منذ بدأ العمل فى الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥ ؛ وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها ، وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالةً نفسية خاصة يظهر أثرها فيما يكتبه ، وإنى لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه فى نفسى ولا يتأدّى مُؤدّاه إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعى إلى كل مقال مما أملاه علىّ ؛ وإنى بهذا الفصل لأحاول جديداً فى فن الترجمة ؛ فما أعرف كاتباً من كتاب التراجم فى العربية حفل بهذا الباب فى تاريخ الأدباء ، على أن له أثراً أى أثر فى دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه ؛ فمن ذلك كانت عنايتى بهذا الباب ، وإنى لأرجو أن تعيننى الذاكرة على تمامه حتى أبلغ منه إلى ما أريد ...

* * *

لم يكن بين الرافعى والزيات صلة ما قبل صدور الرسالة ، إلا صلة الأديب بالأديب ، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا فى كتبهما ورسائلهما . ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة ؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعى ، فتعارفا وأتلفا وإن لم يلتقيا وجهاً لوجه ... ومضت أشهر ...

وتصفّحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ ؛ فإذا فيها كلمة عن « أوراق الورد » للزيات ، يجيب فيها فتاة سألته أن يرشدها إلى شىء مما كتب أدباء العربية فى رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد ... » رأيها فى أوراق الورد فعابته ونزلت به منزلة . وكان الرافعى فى هذه الأثناء بعيداً

عن طنطا يصطاف فى « سيدى بشر » ، وكان علىّ فى هذه الفترة ، والرافعى بعيد عن ميدان الأدب فى مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف ؛ فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردّت به الفتاة ، قصصته من صحيفته وبعثت به إليه فى سيدى بشر ومعه رسالة منى ... وقرأ الرافعى ما بعثت إليه ، فانتضى قلمه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأي الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجدها صاحب الرسالة إلا فصلاً من « على السفود » لا تقوى على لذعاته الفتاة الناعمة . . . فطوى كلمة الرافعى ، ونشر كلمة فى الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة شيئاً من منثور أوراق الورد ... ولم يجب الرافعى هذه الدعوة إلا بعد بضعة شهر .

كانت كلمة الرافعى إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هى أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف ، وكان الرافعى يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذ كان الرافعى لا يملك أن يحسن إليه بالمال — والمال فى يده قليل — فإنه كان يحسن إليه بما يملى عليه من رسائل الأدب ، ليأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعى !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : « لماذا لا تعالج القصة ؟ »

وأملى عليه الرافعى جوابه ، فذهب فنشره فى الرسالة بعنوان « فلسفة القصة » وكان أول ما نُشر للرافعى فى الرسالة[١]

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافعى أن يكتب فصلاً للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحى الهجرة فى نفسى[٢] » .

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » وكان

---

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة

(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٤ من الرسالة

مرجوًّا أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان — وطابعه غير صاحبه — أن يكون إعانة مادية لناظمه توسِّع عليه ما ضاق من دنياه ... !

وقرأ الرافعى ديوان الأعشاب ... ثم هزَّته أريحيته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقاً لرجاء الراجين فيه ، وبرًّا بصاحبه . وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالاً يُعَنْونه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعانى إليه واصطنع حديثاً بينى وبينه فأملاه علىّ لينشر فى الرسالة مذيَّلاً باسمى ؛ وما كان بينى وبينه حديث فى شئ ؛ ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فسماها حديثاً ... وأرضى كبرياءه وعاطفته الرحيمة فى وقت معا .

كان الرافعى فى حرج وهو يملى علىّ هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه فى الرأى وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات فى خاتمة الحديث كانت هى خلاصة الرأى فيه ؛ وبذلك برئ من الإسراف فى المدح ومن الإيلام فى النقد ، وخرج من الأمرين معاً إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغايته . فأجاد وأفاد فى باب من القول له منزلة ومقدار .

ونشر هذا الحديث فى الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاءه البريد ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة ، يعرض عليه أن يكون معه فى تحريرها ، وسمَّى له أجراً ... وقبل الرافعى ، وما كان له بدٌّ من أن يقبل ...!

وشبيهٌ بهذا اللون من ( الإحسان ) الأدبى برًّا ببعض ذوى الحاجات — مقدمةٌ كتبها لكتاب اسمه ( الفاروق — عمر بن الخطاب ) ؛ ألّفه مؤلِّفه وهو مدرس فى إحدى مدارس الحكومة ، وسعى به إليه ليكتب له المقدمة ؛ وقرأ الرافعى الكتاب ، فلم يجد فيه ما يحفزه إلى إجابة هذا الرجاء ، فردّ الكتاب إلى صاحبه معتذراً ؛ ولكن المؤلف عاد يرجوه ويستشفع إليه ؛ ويبسط له من حاله ويصف حاجته ... وأثرت كلماته وما وصف من حاله فى نفس الرافعى ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب كلمة بعنوان « عمر » ، لم يعرض فيها للكتاب ، ولا لموضوعه ، ولا لمؤلفه ،

ولكنها كلمة وجد فيها المؤلف طلبته ليصدّر بها الكتاب وعليه اسم الرافعي ...

... فهذه الكلمات الثلاث : فلسفة القصة ، وديوان الأعشاب ، وعمر — وللرافعي كثير من أمثالها — هي حسنات أدبية أنشأها على أنها لون من ألوان البر والمعونة ، على مثال ما يتصدق ذوو المال بالمال !

* * *

وكانت أولى مقالات الرافعي بعد ما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه، هي مقالة « لا تجني الصحافة على الأدب ولكن على فَنِّيَّته[1] »

وتوالت مقالات الرافعي بعد ذلك في الرسالة ، فنشر في الأسبوع التالي مقالة « الاشراق الإلهي وفلسفة الإسلام » وأحسبه اختار هذا الموضوع — على انقطاع الصلة بينه وبين الموضوع السابق — احتفاء بالمولد النبوي ؛ إذ كان هذا موسمه

ثم نشر « موت أم » وهي صورة حية نابضة لصبْية فقدوا أمهم وما يزال أكبرهم في الثامنة ؛ وهي صورة حقيقية مرَّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه ؛ أما هذه الأم فهي زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصِّبية فبنوها ؛ اهتصرها الموت في ريعانها فمضت وخلّفت وراءها أربعة ، فبكاها الرافعي بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى في جنازة قبل جنازتها ، ودفنت في مقبرة آل الرافعي بطنطا . ولما عاد الرافعي من الجنازة ليعزي صديقه في داره ، دعا بولده ليمسح على رأسه ويسرِّي عنه ، فكان بينه وبين عيني الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه إلا ورأسه يفيض بشتى المعاني وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ، وعيناه تترقرق فيهما الدموع !

وروّح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر ... ومضى يوم ثم أرسل يدعوني إليه فأملى عليّ « موت أم ! »

وكان الأسبوع التالي موعد امتحان الشهادة الابتدائية ؛ فكانت مقالته : « حديث قطّين » . وإنها لتتحدث بنفسها عن مناسبتها . وإن فيها لشيئاً من خلق

(١) العدد ٥٠ سنة ١٩٣٤ الرسالة

الرافعى لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ، ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من ألزم صفاته له ؛ فكان دائماً باسماً منبسط الوجه ، يقنع نفسه فى كل يوم بأنه فى أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له . ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعى لم يكن يرى فى تلك العلة التى ذهبتْ بسمعه وما يزال غلاماً ، إلا نعمةً هيأتْه لهذا النبوغ العقلى الذى أملى به فى تاريخ الأدب فصلاً لم يُكتب مثلُه فى العربية منذ قرون ! ولا شىء غير الإيمان بحكمة القدَر وقانونِ التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعى !

هذا الخُلُق هو المحور الذى كان يدور حوله الحديث الذى اصطنعه الرافعى على لسان القِطّين ؛ وهو الذى حمله من بعد على إنشاء مقالتى : « سموّ الفقر » فى العددين التاليين من الرسالة ؛ والشىء يُذكر بالشىء ؛ فلولا ما جاء فى امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام، ما أنشأ الرافعى حديث قطين ، ولولا ما ألهمه حديث القطين من المعانى فى فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتى : « سموّ الفقر » ؛ فى هذه المقالات الثلاث موضوع واحد اختلف عنوانه واتحدت عنايته وكانت مناسبتُه ما قدّمْت ...

ثم أنشأ مقالة « أحلام فى الشارع » وقصتها أننى كنت أساهر الرافعى ليلة ، فلما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ، ومررنا فى طريقنا بدار (بنك مصر)، وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة ( البنك ) وقف الرافعى هنيهة ليشهد منظراً استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسّدت الفتاة ذراعاً وألقت ذراعاً على أخيها . . . ووقف الرافعى ووقفْت . . . ورأى الشرطىّ ما رأينا فأسرع إلى الطفلين ...

وفى الغد أملى علىّ الرافعى مقالة « أحلام فى الشارع ! »

... وكانت المقالة التالية « فى اللهب ولا تحترق ! »

وهى الممثلة الراقصة المغنية ف ... وكانت تعمل فى فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقتها فى طنطا فى صيف سنة ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافعى إلى مصيفه فى سيدى بشر هذا العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون فى طنطا من أسباب الملذات والرياضة ؛ وإن فيها لغَناء وعوضاً

وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافعى نسمر معه كل مساء ( س ، ا ، ع ) وجلسنا حوله ذات ليلة ، وكان متعباً مكدوداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ »

قال ا : « إن فى متنزه البلدية فرقة تمثيلية ، هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها لمغنية راقصة ؛ أحسبها خليقةً بأن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ! »

فمطّ الرافعى شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، وأحسب أن الصديقين ا و ع كانا على رغبة مشتركة فى هذه السهرة ، فما أحسّا رفض الرافعى حتى قال ع : « ... ولكنها راقصة ليست كالراقصات إنها صوّامةٌ قوّامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقلّه ، وتصلى الخمس فى مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغناءها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ... ! »

مغنية وراقصة ، ولكنها صوامة قوامة ... يا عجباً ! وهل فى الراقصات كهذه التى يصفها الصديق العابث ع ؟ .. ولكن الرافعى صدّق ، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الرافعى . واتفقنا على الرأى .

« هذه هى الراقصة التى أعنى .. » هكذا قال الصديق ( ع ) فاشرأب الرافعى ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت فى أعين الناس ... كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام ...

هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق اللفاء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحالمتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع .. هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتترامى إليها أمانى الشباب ؛ ولكن رجلاً واحداً بين النظارة لم يكن يبصر شيئاً من ذلك : رجلاً لم يكن أحد

فيمن أعرف أضعف منه بإزاء سحر المرأة ، ولـكنه الليلة شخص غير من أعرف. ولـكن هذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس .. هى فى عين الجميع ( أنثى ) فاتنة ، ولـكنها بعينيه هو قديسةٌ تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغنى ، وكانت بعينيه عابدة تسبِّح وتصلى .. كان الناس ينظرون إلى الراقصة وهى تفتنُّ فى إغراء الرجال بالنغمة والحركة والرَّنْوَة الفاتنة ، وكان الرافعى ينظر فى أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله فقامت حياله تريه ما لا يراه الناس !

وانفض السامرون إلا قليلا تحلَّقوا حول الموائد يقرعون كأساً بكأس ونهض الرافعى فيمن نهض ...

ومضى يومان ، ثم دعانى ليملى علىَّ مقالة « فى اللهب ولا تحترق ! »

ولما فرغ الرافعى من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه ( ع ) يستزيده من خبر هذه الياقوتة الـكريمة ، ويسأله الوسيلة إلى لقائها إن كان بينهما سبب ، لعل اجتماعاً بينها وبين الرافعى يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ؛ فابتسم الصديق ( ع ) وقد دبر فى نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل يُعجزه هو — وهو مَن هو — أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليمضى فى مَزْحَته إلى النهاية ؟

وذهب ( ع ) يسأل عن الراقصة ويستقصى خبرها فعرف ...

لقد فرَّت ( الياقوتة ) مع موسيقىّ الفرقة ، ومضى زوجها فى أثرهما ، فانحلت الفرقة وغادرت المدينة

وجاء النبأ إلى الرافعى ؛ فما عرف إلا من بَعد أنها كانت مزحة من الصديق ع فأسرها فى نفسه ...

وعاد الرافعى إلى المقال يقرؤه منشوراً فى الرسالة وهو يضحك ويقول : « أهذا ممكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون فى اللهب ولا تحترق ؟ » .

فرد الصديق ( ع ) قائلاً : « لقد احترقت ! » .

وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها فيما قرأت من روائع الأدب العربى !

* * *

كان أكثر جلساء الرافعى فى هذه الفترة هم الأصدقاء ( س . ا . ع ) ، فكان لهم سره ونجواه ، وإلى موعدهم مغداه ومراحه ؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة ؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء فى هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه ، فهى له فى الليل مشغلة وفى النهار مشغلة .

أما ( س ) فكان على نية الزواج ، قد ترامتْ أمانيه إلى واحدة من أهله ، ولكن ( التقاليد ) وقفت بينها وبينه موقفاً ما ، أورثه ضجراً وملامة وسخطاً على الناس وتبرُّماً بالحياة وخروجاً على ما تواضع الناس عليه من التقاليد فى شئون الزواج ...

وأما ( ا ) فكان فى عهد بين عهدين من حياته : قد ودَّع ماضيه بما فيه من عبث ومَجَانة ، وطلَّق شهواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال فى ظلّ الزوجة المحبوبة المحبَّة ؛ فسمَّى زوجته وعقد عَقْدَه ، ثم وقف ينتظر اليوم الذى يبنى بأهله قلقاً عجلان ، واليوم الموعود لا يحين لأن ( التقاليد ) تبعد به كلما دنا موعده ...

وأما ( ع ) فشاب قد انفرد فى الحياة من أهله : فَقَد أمه وهو غلام ، فما كاد يستوى شبابه حتى مضى يلتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الآنثى ، فتزوج ، ثم فقد زوجه ؛ ثم تزوج ، فما بقيتْ الثانية إلا بمقدار ما بقيت الأولى ، ولكنها خلَّفتْ بضعة منها بين يديه مصوَّرة فى طفلة سلبتها القدرةُ أمَّها يوم منحتها الحياة !

... هو أب ولا زوج له ، وهو عزَبٌ وكانت له زوجتان ، وهو فتى يؤمن بالله ويلحد فى القدر ، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداهما فى المسجد وتعرف الثانية فى الشارع ؛ وله عين عفة وعين فاجرة ؛ وله فى الحياة تجربة ورأى ؛ وله إلى الهوى واللذات مثلُ اندفاع الشاب الذى لم يذق ولم يجرب بعد !

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه فى الحياة ومذهبه ، ولكنهم قد التقوا فى مجلس الرافعى على هوى واحد ، فأحلوه من أنفسهم وأحلهم من نفسه ؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب ، ولهم من حديثه حكمة الشيخ ، وللأدب من كل مجلس يجمعهم وإياه موضوع حى مما كتب الرافعى لقراء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات « قصة أب »

ذلك هو الصديق ( ع ) كان الله له ... !

جلس مجلسه يوماً إلى الرافعى يشكو بثه وهمه والدموع تترقرق فى عينيه ؛ واستمع الرافعى إلى شكاته متألماً حزيناً ؛ فما فرغ ( الأب ) من قصته حتى جمع الرافعى ( قصاصات ) الحديث فجعلها فى جيبه وجلس يتفكر ... ثم كانت « قصة أب »

* * *

وفى الأسبوع التالى كان زفاف إبنته إلى ابن أخيه فى حفل أهلى خاص وصفه الرافعى فى مقاله « عرش الورد » ؛ وهو عرش نظمه بيده الأستاذ سامى الرافعى لمجلس العروسين ، وجعل فيه فنّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدّمه إليهما هدية عرس

ولما جلس العروسان ذراعاً إلى ذراع فى عرش الورد ، بارك لهما الرافعى ودعا ؛ ثم خرج ليمضى ساعات فى القهوة . ولقيني هناك وحدى ، فانتحينا ناحية على حيْد الشارع لا يترامى إليها من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعى يؤثر دائماً أن يجعل مجلسه على ذلك الرصيف فى جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا » إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه فى الليل والنهار من ألوان الجمال فى الطبيعة والناس — مما يحبّب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ، وإلى الفكر أن يبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ...

وكان الليل نائماً يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همسٌ خافت ، وفى الجو شعر يهزج فى سِرار النسيم وفى حفيف للشجر ، وعرائس الخيال تُطيف راقصة تنفح بالعطر وترفُّ بالنور ... ولكن الرافعى جلس مجلسه صامتاً لا يتحدث ،

إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جمرات للكركرة ... واحترمت صمته فسكتُّ عنه ...

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلىّ وهو يقول : « الليلة عُرس ابنتى ...! »

ولم يسمع جوابى ، لأن دمعة كانت تترقرق فى عينيه وهو يتحدث حبستنى عن الجواب ...!

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جاءنى يقول والدمع يلمع تحت أهدابه : « إن وهيبة مسافرة إلى زوجها فى أمريكا ؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يومَ جاءنى بعدها يقول وفى يده صحيفة أمريكية : « انظر هذه الصورة ، إنهم يسمونه هناك : أصغر سائح مصرى فى أميركا ... إنه حفيدى الصغير ... ! »

لقد كان الرافعى يحب أولاده حباً لا أعرف مثله فيمن أعرف ؛ ووهيبة كبرى أولاده ، ذكرها فى « الديوان » ، وغنى لهـا فى « النظرات » وأرَّخ زواجها فى « عرش الورد » .

* * *

وكانت المقالة التالية هى : « الإنسانية العليا » .

وهى باب من القول فى الأدب الدينى تنتظم مع « وحى الهجرة » و « الإشراق الإلٰهى » و « سموّ الفقر » تحت باب واحد ...

... كان يعتاد الرافعى كما يعتاد كلّ إنسان ، نوباتٌ من الضيق والهم تقعد به وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هـذا الضيق الذى يعتاده إلا أن يقرأ قرآناً أو ينظر فى كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه ويزول ما به ، ويهون عليه ما يلقى من دنياه ...

فى نوبة من هذه النوبات التى تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافعى كتاباً من كتب الشمائل يسرِّى به عن نفسه ، فاتفق له رأى ... وخرج من مطالعته بمقالة « الإنسانية العليا »

... وكان للرسائل التى ترد للرافعى فى البريد من قراء الرسالة أثر يوحى إليه فى أحيان كثيرة بما كتب لقرائه ، فهى منهم وإليهم ؛ فمنذ بدأ الرافعى يكتب فى الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة فى موضوعات شتى ولمناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحياناً فى اليوم الواحد ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرؤها جميعاً ويحفظها فى درج خاص من مكتبه ؛ وللحديث عن هذه الرسائل باب آت ، إنما يعنينى اليوم أن أتحدث عن الموضوعات التى استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة « تربية لؤلؤية »

كانت تصدر فى القاهرة فى ذلك الوقت مجلة ( الأسبوع ) وقد فتحت صدرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقلوبهم و ... غرائزهم ، وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه السماحة أن صارت — كما يقول العامة — بطن حمار ! وأصبحت ميداناً للغزل البرىء وغير البرىء ، وموعداً من مواعد التلاق والوداع .

وفى صبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعى رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى محاورة داعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان فى مجلة ( الأسبوع ) . وبعث الرافعى فى طلب أعداد المجلة فجىء بها ؛ فما قرأها حتى تناول القلم وأملى على مقالة « تربية لؤلؤية »

فى هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعى فى حرية المرأة وحقها فى المساواة ؛ وترى لهذا الرأى بقية فيما نشر من مقالات الزواج والطائشة ، والجمال البائس ، وغيرها ؛ وهو يزعم أنه بهذا الرأى من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة . وللرافعى حين يتحدث فى هذا الموضوع حجة قوية وبرهان ماض ، إلى روح رفافة وشعر ساحر . ولست واجداً أحداً يرد عليه فى ذلك على قلة من تجد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى المربى الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداول الرأى فى أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعى لمناسبة ما فيما كتب الرافعى للرسالة ، فقال لى : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحداً

— أيضاً — يستطيع أن يصاول الرافعى فى هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه ! »

... وأرضى الرافعى بهذا المقال السيدة الكريمة التى كتبت إليه ، ولكنه أغضب مئات من القارئات وعشرات من القارئين ؛ فانثالت عليه الرسائل من هولاء وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضع رسائل ...

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤة » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى الإسكندرية ليستريح يوماً هناك ، يتزوّد فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ ... كان قد كتب مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت فى نفسه ، فلما ذهب إلى الشاطئ وجد تمام موضوعه ، فعاد ليملى علىّ مقالة « لحوم البحر » وهى قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من النثر الشعرى فاق فيه الرافعىُّ وغلَب ...

* * *

كان للرافعى عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كَتب أن يسأل عنه كلَّ من يلقى من أصحابه ... « هل قرأت مقالتى الأخيرة ... ؟ وما رأيك فيها ... ؟ هل يملك أحد أن يعرض لرأى فيها بالنقد ... ؟ »

وكان يعتدّ كثيراً بمقالة « تربية لؤلؤة » ، فى ذات مساء بعد نشر تلك المقالة قصد إلى القهوة ليريح أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء ( س . ا . ع[1] ) ؛ فما كاد يستقر به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت ... ؟ ما رأيك ... ؟ هل يملك أحد ... ؟ »

كان للرافعى فى كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى ، وكان لكل واحد فى نفسه حقيقة ، ولهم فى الحياة نظرات تغترب وتقترب ؛ وكلهم قد حرموا المرأة لوناً من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم فى المرأة رأى ؛ مما تخيّلها ، أو مما كابدها ، أو مما شقى بها ...

والرافعى رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب

---

(١) ا و ع : هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله عمار ؛ وكانا زميلى الرافعى فى محكمة طنطا .

ويوشك أن يكون جَدًّا ؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقرى إلى ماضى شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب فى المرأة والحب والزواج . وهؤلاء الأصدقاء — على ما قدّمتُ من نُعوتهم فى أول هذا الفصل — تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف ألوانها ؛ وما يزالون فى باكر الشباب وفى يقظات الحُلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعاً من المراس : فى وهمه أو فى حياته ...

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنوناً ، وساقهم الرافعى بحسن احتياله إلى هدف يرمى إليه ... فما انقض المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعى ليجيبوه كتابة عن أسئلة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزموا الصدق ، ويجانبوا الحياء ، ويخلصوا فى الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هى :

كيف ترى المرأة فى وهمك؟ وأين مكانها من حياتك؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها ؟ لماذا لم تتزوج ؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم ؛ فمنها كانت مقالة الرافعى ( س . ا . ع ) وهى أولى مقالاته فى الزواج ؛ ثم تتابعت مقالاته فى هذا الموضوع ، فخطا بها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سدٌّ منيع .

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام ، جاءه رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه فى أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبحث يهم أن يصدره فى كتاب ... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعى إلى الكتابة فى هذا الموضوع . وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جواباً فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ، ولم أقرأه منشوراً منذ أرسله إلى طالبه .

...بدأ كثير من الشبان يهتمون بما كتب الرافعى؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب عَزَب ، وتضاعفتْ رسائل القراء إليه ، وطال الجدل فى موضوعه بين طوائف من الشباب فى مجالسهم الخاصة ...

فلما كانت أيام بعد مقالة ( س . ا . ع ) جاء إلى مجلسنا فى القهوة شاب

من أصدقائنا المتأدبين ، هو الأستاذ إسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع بالأدب وشهوة فى الجدل ، وفيه إلى ذلك لين فى الخلق وشذوذ فى الطبع ؛ وكان الرافعى يعرفه عرفاننا ، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... فمال عليه يسأله ضاحكاً ... وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ! وما يحملنى على هـذا العنت ؟ أتريدنى على أن أبيع حريتى من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال

وتم للرافعى موضوعه ، فأملى علىّ فى اليوم التالى مقالة « استنوق الجمل »

فى هذه المقالة يجد القراء سبباً آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدّم س . ا . ع فى المقالة السابقة ؛ فهى الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعى بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعاً ليستجم ، ولمّ من هنا ومن هناك طائفة من منثور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان كلمة وكليمة . وهى عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة فى الفكر ولا فى الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه

وقد قدّمت القول عن هذه الكلمات القصار التى كان الرافعى ينشرها بعنوان « كلمة وكليمة » ؛ فحسبى هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكليمات ودوافعها :

فى هذه الكلمات التى نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب ؛ وهذه من فضلات المعانى التى اجتمعت له فى مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضعاً مما كتب ... وفى هذه الكلمات رسائل إلى ( فلانة ) من تلك الرسائل التى قدّمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعى . وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التى كانت فى مصر لذلك العهد ، وحكومة صدقى باشا تحتضر ...

فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كلمة وكليمة .

* * *

كان بين الرافعى والإبراشى باشا ما قدمت الحديث عنه فى بعض الفصول السابقة ، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعى بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ

عبد الله عفيفى ... وسارت الخصومة بين الرافعى والإبراشى إلى مدى ، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن ( الدكتور ) محمد الرافعى مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب فى جامعة ليون !

وضاقت نفس الرافعى بهذا اللون من ألوان الكيد ، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه ؛ وألزمته الضرورةُ أن يقوم بالإنفاق على ولده حتى يبلغ مأمله ، على قلة إيراده وضيق ذات يده ؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه وفى نفسه أن يأتى يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله ! ووجد الفرصة سانحة لذلك فى عيد الجلوس الملكى سنة ١٩٣٤ ، فأنشأ كلمة بليغة فى تحيته بعنوان « آية الأدب فى آية الملك » وأرسل بها إلى الرسالة لتنشر فى العدد ٦٦ سنة ١٩٣٤[1]

كانت حكومة الإبراشى باشا يومئذ فى الاحتضار ؛ وقد تنبه الشعب وتهيأت نفسه لحادث منتظر يردّ إلى الأمة سلطانها الذى فقدته منذ تولى الإبراشى باشا رياسة الديوان الملكى ، وكانت الجرائد السياسية تتحدث فى كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة القصر وحقوق الأمة . وفى مثل هذه الحال لا يمكن أن تقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين ، مادام هناك رأى بإزاء رأى ، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك ...

... ولكن الرافعى لم يعتبر شيئاً من ذلك حين أنشأ « آية الأدب ... » ولم يقدِّر ما يمكن أن تؤول إليه كلمته عند من يقرؤها من أهل السياسة ؛ إذ لم يكن له من العلم بالسياسة ما يؤهله لأن يفهم ذلك ... !

والرسالة صحيفة أدبية تحرص على رضا قرائها جميعاً على اختلاف رأيهم فى السياسة فإن صاحبها ليتوقع ما يمكن أن يوجَّه إليه من التهمة لو أذن بنشر هذا المقال فى صحيفته ؛ فما هو إلا أن سلمه إليه ساعى البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليلقى الرافعى ويحدثه من حديثه ...

---

(١) كان عيد جلوس الملك فؤاد الأول — رحمه الله — فى ٩ أكتوبر، وكان موعد صدور هذا العدد يوم ٨ اكتوبر سنة ١٩٣٤

والتقيا ... وفهم الرافعى ما عناه صاحبه ، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صبيحة عيد الجلوس ، وقرأه من قرأه . ثم كانت آخرة العهد الإبراشى بعد ذلك بشهر واحد فكتب من كتب من خصوم الرافعى يعدّد فيما يعدّد من « جناية الابراشى باشا على الأدب » أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة ، ويسخرهم للاشادة بحكم الفرد ؛ وكان الرافعى عنده من صنائعه ، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال !

* * *

وأرسل الرافعى إلى الرسالة بديلاً من هذا المقال ، مقالاً آخر بعنوان « أرملة حكومة » وكان يَعنى به صديقنا الأديب المهندس محمد ا ، وهو شاب من « أدباء القراء » أسقورى المذهب صريح الرأى ؛ سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج ، وبينه وبين الأستاذ اسماعيل خ صاحب « استنوق الجمل » صلة من الود ، وشركة فى الرأى ، وصحبة فى البيت والندى والشارع ...

لقيَنا مجتمعين فى القهوة اجتماعنا كل مساء ، فعاج يسلم ثم جلس ، وسأله الرافعى : « ... وأنت فلماذا لم تتزوج ؟ »

قال المهندس : « لست والله من رأى صاحبى فيما حدثكم به أمس ، إنى لأريد الزواج وأسعى إليه ؛ ولكن من أين لى ... من أين لى المهر ، وهدايا العروس ، وأكلاف الفرح ؟ إن الزواج عندى ليشبه أن يكون معجزة مالية لاقبل لى بها ...! ولو قد عرفت أن هذه المعجزة تتهيأ لى بالبخل على نفسى والقصد فى نفقاتى وباحتمال العسير والمشقة على نفسى وعلى مَن حولى — لما وجدت ما يشجعنى على هذا الاحتمال . إنى لأعرف من بنات اليوم ما لايعرف غيرى ، أفتريدنى على أن أحتمل العنت سنتين أو ثلاثاً حتى يجتمع لى من المال ما يجتمع ، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لى منها شقاء النفس وعدو العمر ... ؟ »

وقال الرافعى ... وقال الشاب ... وطوى الرافعى ورقاته وقد اجتمع له موضوع جديد . وتهيأت له الفكرة تامة ناضجة فأملى علىّ مقاله « أرملة حكومة »

وبعث به إلى الرسالة فى البريد المستعجل ليدرك موضعه فى عدد الأسبوع بديلاً من ( آية الأدب ... )

وقلت للرافعى وقد فرغ من إملاء هذا المقال : « أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به ، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أمليتَ علىّ ، لقد صدق ؛ فمن أين له ... من أين له هو ... ؟ إنه لحرى أن يُوَجَّه العتبُ والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه التقاليد التى تفرض على الشاب الذى يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية ! »

فضحك الرافعى وقال : « أتراه كان يتحدث بلسانك ...؟ لقد أخفيتها عنى يوم سألتُك ؛ وليس ثمة ما يمنعنى أن أصحبك غداً إلى ( ع . . . ) لأطلب إليه أن يعفيك من هذه المعجزة المالية ! »

... ومضت أيام ، ثم دعانى ليملى علىّ « قصة زواج » . وكانت هذه القصة هى جوابَ ما سألتُه تأخَّر إلى ميعاد . وكانت هى أول ما أنشأ الرافعى من القصص لقراء الرسالة .

## قصص الرافعى

أرانى وقد بلغت هذا الحد ، مسئولاً أن أتحدث عن قصص الرافعى ، وكيف كان يؤلفها ، وأول ما عالج منها ، وطريقته فيها :

لم يعالج الرافعى القصة — فيما أعلم — قبل قصة سعيد بن المسيّب إلا مرتين : أما أولاهما ففى سنة ١٩٠٥ ، وكانت مجلة المقتطف قد سبَّقتْ بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية ، فأنشأ الرافعى قصته الأولى وكان عنوانها « الدرس الأول فى علبة كبريت » ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان « السطر الأخير من القصة[1] » وسأتحدث عنها فى موضعها .

أما القصة الثانية فأنشأها فى سنة ١٩٢٥ بعنوان « عاصفة القدر » ونشرتها

---

(١) الرسالة : العدد ٧٨ سنة ١٩٣٤

المقتطف أيضاً [١] . ثم كانت قصة سعيد بن المسيب فى سنة ١٩٣٤ .

على أن ثمة فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأوليين ؛ ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأهما إنشاء ، فلم يعتمد فيهما على حادثة فى التاريخ أو حديث فى كتاب ؛ أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد فى التاريخ فلم يكن له فى إنشائها إلا بيان الأديب وفن القاص ، وكانت نواةً فمهد لها واستنبتها فنمت وازدهرت . وفى الأدب القديم نوَيات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبه لها الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة فى العربية ، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معيناً لا ينضب كان حريًّا بأن يمدهم بالمدد بعد المدد لينشئوا فى العربية فنًّا جديداً من غير أن يقطعوا الصلةَ بين ماضينا وحاضرنا فى التاريخ الأدبى ؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد ، وإلى مثل هذا ينبغى أن تكون دعوة المجددين ، لا إلى الاستعارة والاستجداء من أدب الغرب والجرى فى غبار كتابه وشعرائه .

... أقول : إن الرافعى لم يكن يعرف عن فن القصة شيئاً يحمله على معالجتها ويغريه على العناية بها ؛ وقد قدّمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من الأدباء على معالجة القصة ولا يراه أهلاً لأن يكون من أصحاب الامتياز فى الأدب ؛ إذ لم تكن القصة عنده إلا ضرباً من العبث ولوناً من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغى أن تكون هى كلّ أدب الأديب وفن الكاتب . وقد كان يعيب علىّ لأول عهدى بالكتابة أننى لا أكاد أكتب فى غير القصة ، وأننى أجعل بعض همى فى دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتاب فيها ، وكان يرى ذلك منى تخلُّفاً وعجزاً ونزولاً بنفسى غير منزلتها بين أهل الأدب !

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة فى قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب ؛ كما يشاهد رواية فى السيما أو يقرأ حادثة فى جريدة . وأحسب أنه كان يعتقد — على أنه كان لا يعرف التواضع فى الأدب — بأنه

(١) المقتطف : ديسمبر سنة ١٩٢٥

لا يحسن أن ينشئ قصة ولا ينبغى له . وأحسبه أيضاً حين أنشأ قصة سعيد ابن المسيب لم يقصد إلى أن تكون قصة ، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه ...

والحقيقة أن الرافعى كان يملك طبيعة فنية خصبة فى القصة ، يعرفها من يعرفه فى أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه ، حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوى من الحديث وينشر ، ويكتم ويورى ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجد ؛ ويطوى النادرة إلا آخر الحديث ، ويقول فى آخر المقال ما كان ينبغى أن يكون فى أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقُّر المصنوع ؛ وإن له فى هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المتزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهاناً على ذلك ؛ فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة .

... وهذه هى كل أدوات القاص الموفق ؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فنّ القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرّزين . ولكن الرافعى كان يجهل طبيعة نفسه ، وكان له فى كتّاب القصة ما قدمت من الرأى ، فكان تخلّفه من هذين !

وحتى فيما أنشأ من القصص بعد ذلك ، لم يكن له مذهب فنى خاص يحتذيه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملقٍ باله إلى ما رسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها ؛ فإننا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصةً له وحده ، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص ؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلُّف ، أو ابتكار وتجديد .

وطريقة الرافعى فى كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القُصاص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته فى أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر فى الحادثة أول ما يفكر ، ولكن فى الحكمة والمغزى والحديث

والمذهب الأدبى ، ثم تأتى الحادثة من بعد؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من القصص ، جعل همه الأول أن يفكر فى الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ — على طريقته فى إنشاء المقالات — فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى فى تحديد الفكرة إلى ما يريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر فى أسلوب الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدى موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة ، فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد ؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى أعده من قبل ؛ وإنه ليلهم أحياناً ويوفق فى ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتى القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها فى سطور ، أو إلا أسماء الرجال ... ...

على أن البديع فى ذلك هو قدرة الرافعى — يرحمه الله — على أن يعيش بخياله فى كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة من قصص الرافعى فى أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء ...

وأحسب أن الرافعى لم يتخذ هذه الطريقة فى تأليف القصص عن عمد واختيار ؛ فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها — ورأيه فى القصة رأيه — ولكنه مذهب اتفق له اتفاقاً بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتى له ذلك من طريقته التى أشرتُ إليها فى الحديث عنه عند ما يهم بالكتابة ؛ فقد أسلفت القول أنه كان يحرص على أن يعيش وقتاً ما قبل الكتابة فى جو عربى ، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرع فى إملاء مقاله ؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه فى القصة . ولكل شىء سبب . وأحسبه لما همَّ أن يكتب عن « المعجزة المالية » فى تقاليد الزواج وعن فلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة

فى ذلك ، تناول — كعادته — كتاباً من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر ، فاتفق له فى مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبى وداعة ؛ فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدا له أن يؤدى موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعانى ليملى علىّ هذه القصة قال لى فى لهجة الظافر : « ... لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثاً لا أعرف أبلغ منه فى موضوعه ... » فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب فى القصة كان اتفاقاً غير مقصود ، صادف طبيعة خصبة ونفساً شاعرة فكان فناً جديداً .

وأكثر قصص الرافعى من بعدُ على هذا المذهب . على أن لكل قصة من هذه القصص — أو لأكثرها — أصلاً يستند إليه من رواية فى التاريخ أو خبر مهمل فى زاوية لا يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعى الفنية وإحساسه ويقظته ؛ على أن أهمّ ما أعانه على ذلك هو عندى صلتُه الروحية بهذا الماضى وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه ؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضى قلباً ينبض كأن له فيه ذكرى حيةً من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره ، فما يقرؤه تاريخاً كان وانطوت أيامه ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحىّ بين أهله، فما أهون عليه بعدُ أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء!

وقد كنت على أن أرد كل قصة من قصص الرافعى إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول ، ليكون النموذج واضحاً لمن يريد أن يحتذى الرافعى ليتمم ما بدأ على مذهبه فى تجديد الأدب العربى . ولكنى وجدت ذلك أشبه بأن يكون فصلاً من الأدب ، ليس موضعه فى هذا الكتاب .

# عود على بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد ا. إلى الرافعى من أسباب عزوبته، أن الزواج عنده حظ مخبوء ، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة فى سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخرة ذلك أن يجلوا عليه فتاة دميمة لا يجد فى نفسه طاقة على معايشتها ما بقى من حياته ، أو فتاة فاسدة التربية لا يدخل بها على زوجة ولكن على معركة ...

وقد ظل هذا القول عالقاً بذهن الرافعى يلتمس الوسيلة إلى تفنيده والرد عليه ، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن ( كاتب ابن طولون ) ، فأنشأ مقالة « قبحٌ جميل » وهى القصة الثانية مما أنشأ الرافعى لقراء الرسالة ؛ وهى الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته فى الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سوداء ولودٌ خير من حسناء لا تلد !» يسلك هذه المقالة فى باب «الأدب الدينىّ» الذى أشرتُ إليه فى بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هى قصة « رؤيا فى السماء » ، وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمَى ، وتدعو إليه الدعوةَ الإنسانية التى تعتبر الزواج باباً من الجهاد لسعادة البشرية كلها ...

فى هذه المقالة ؛ لا أعرف سبباً خاصاً من مثل ما قدمت دعاه إلى إنشائها ، ولكنها جملة الرأى وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ؛ فهى من الموضوع كالهامش والتعليق ، أو الحكم بعد المداولة ، أو هى الصفوةُ الصريحة بعد ما يذهب الزَّبد وتنطفئ الرغوة ...

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب الباحث الأستاذ فليكس فارس ؛ وكانت هى أول الصلة بينه وبين المرحوم الرافعى ثم اتصل بينهما الود .

* * *

لما أنشأ الرافعى « قصة زواج » تحدث بها الأدباء فى مجالسهم وتضاعفت

رسائلهم إليه معجبين مستزيدين ؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه . . . فاستزاد واستعاد ، والتزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد .

وجلست إليه ذات مساء نتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء : « اقرأ يا شيخ سعيد . . . أرأيت مثل هذا ؟ أيحق لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب فى موضوعه ؟ أيملك كاتب أن يردّ علىّ رأياً من الرأى ؟ »

ومضى فى طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فعرفت أنه فى لحظة من تلك اللحظات التى تتنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شىء مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضعف الإنسانى فى طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة فى النابغين من أهل الآداب والفنون ! ذلك الإيمان الذى نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ؛ ونسميه فى النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة !

وكان يلذنى فى أحيان كثيرة أن أشهد الرافعى فى مثل هذه الساعة من ساعات الزّهو والإعجاب بالنفس ، وأجد فى ذلك متاعاً لنفسى وغذاء لروحى ؛ لأن الرافعى بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعاً ؛ فلا تشهده فى مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعانى ، وكأنما هو يعدى سامعه من حالته ، فيحس فى نفسه قوة فوق قوته ، وكأن شخصاً جديداً حلّ فيه ..

. . . وسرنى أن أجد الرافعى كذلك فى تلك الليلة ، فأصغيت إليه ومضى فى حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى دارى ، وسوس لى الشيطان أن أعابثه بشىء . . . فكتبتُ إليه رسالة بإمضاء ( آنسة س ) أرد عليه رأيه فى قصة سعيد بن المسيب ، وأعيب ما صنع الرجل بابنته ، وعمدت فى كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه ، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الرافعى . . . وبلغته الرسالة فقرأها ، فنبهته إلى ما كان فيه من أمسه ؛ ووقع فى نفسه

أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موحى إليه بما كتب، فتحمس للرّد ، وأنشأ « ذيل القصة وفلسفة المهر » وجعل أول مقاله رسالة ( الآنسة س ) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخرية لاذعة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر ...

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلى الرافعى يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على ما بين الرسالة والدكتور طه من صلات الود... وكان له ما طلب، فنشرت المقالة فى موعدها خالية من هذا الجزء ، ولكنها لم تخل من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة ؛ وكذلك نشرت من بعد فى وحى القلم ...

* * *

ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهى السابعة من مقالاته فى الزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه ( الزبال الفيلسوف ) الذى تحدث عنه فى هامش هذه المقالة . وهذه المقالة فيما ترمى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » فهى دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد فى شئون الزواج ، وفيها إلى ذلك شئ من الحديث عن « فلسفة الرضا » التى أسلفت القول عنها فى « حديث قطين »

أما هذا الزبال الذى نوه به الرافعى فى أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة فى « بلدية طنطا » ، وكان عمله قريباً من دار الرافعى فى الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله فى الكنس والتنظيف اتخذ له مستراحاً على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الرافعى ، فيقضى هناك أكثر أوقات فراغه ، نائماً أو محتبياً ينظر الرائحين والغادين من أهل الثراء والنعمة ، أو شادياً يصدح بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فيأكل مما فيه ، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبسوته يتأمل ...

كان هذا الزبال صديق الرافعى ، بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الرافعى يسميه « أرسطو الجديد » . وأول هذه الصلة التى بينهما

أن الرافعى كان يلذه أحياناً أن يجلس على كرسى فى الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث اتخذ الزبال « محله المختار » فكان يوافقه فى مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يبتسم ، ثم يجلس ؛ وكان يحادثه أحياناً فى بعض شئونه يلتمس بعض أنواع المعرفة ... ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لتحيته إذا حضر ؛ وصار بعض عادات الرافعى من بعد ، أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشترى له كلما لقيه دخائن بنصف قرش ، مبالغة فى إكرامه ...

وكان الرجل أمياً ، ولكن الرافعى كان يفهم عنه من حركات شفتيه، وأحياناً يستدعى بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً فى ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الرافعى يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث ، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالَمه !

ومما كان يدور بين الرافعى وصديقه هذا من الحديث ، عرف الرافعى طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها ، وطائفةً من الأمثال ؛ ونبهه ذلك من بعدُ إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضع مئات بمصادرها وموادها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الرافعى من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعى » معانى وأفكاراً جديدة فى فلسفة الرضا لم تلهمه بها طبيعته .

ولهذا الزبال صنع الرافعى أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التى نشرها لقراء الرسالة فى العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحناً يناسبها .

وقد كان فى نفس الرافعى أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالاً كبيراً ، حتى إنه همّ بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج ؛ وقد هيأ لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهيأ له من الخواطر فى موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أعجله عن تمامها ، وأحسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلّف من الأوراق .

لم تكن قصة « بنت الباشا » هى آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ فى هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقى عنده طائفة من المعانى والخواطر فى موضوع الزواج والمرأة ، جاءت مبعثرة فى طائفة من المقالات من بعد ؛ ومنها مقالة ( احذرى ) وهى قصيدة من النثر الشعرى مترجمة عن الملك ، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان فى مقالة ( لحوم البحر ) .

وكان الرافعى فى هـذه الفترة قد اصطنع مودة بينه وبين طائفة من الشبان اللاهين ، كانت تجمعهم قهوة ( لمنوس ) فى طنطا للعبث واللهو والمجانة ؛ فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم فى شئون المرأة والزواج ؛ وقد قدّمت القول فى بعض ما سبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعى كان سريع الالتفات إلى معانى المرأة ، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ، حتى لتراه وهو يستمع إلى محدّثه إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا حديثاً ؛ ثم يزيّن له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع ما لم يسمع ؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق : يجد حديث الغزل والحب حريقاً فى دمه وثورة فى أعصابه لا حديثاً فى أذنيه ... فيستزيد مما يسمع وهو صاغٍ ملذوذ ؛ فيحمل محدثه بذلك على الاطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال ... !

وعلى شدة إحساس الرافعى بمعانى ( الجنس ) إلى هذا الحد ، فإنه بإيمانه وخلقه وتدينه واعتصامه بالوحدة ، كان قليل الخبرة ضئيل المعارف فى هذا الباب ؛ فكان له علم جديد فى كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل ؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة ، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعى الذى يعرفه القراء .

من أحاديث هؤلاء الفتيان ، كان إليه وحى المعانى فى قصيدة « احذرى » ؛ كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعانى وكثير من الموضوعات ؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف

والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

* * *

وكان الرافعى يختلف فى طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان، كان بينه وبينهم صداقة ومودة ؛ فكان يزورهم بين أهليهم ، فيكرمونه ويتسعون له ويحفّون به ؛ والرافعى محدّث لبق ظريف المسامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه . وفى بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير ما نعرف فى بيوتنا ، فكان الرافعى يجد هنالك جواً يوحى إليه ويمده بعلم جديد .

وأنا لم أصحب الرافعى فى طنطا إلى (زيارة مصرية) إلا فيما ندر ، على أنى كثيراً ما كنت أصحبه فى تلك الزيارات !

وأعترف بأن الرافعى لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيراً ممن كان يزورهم ويزورهن كن يعرفن له ذلك فيهيئن له أسبابه. وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجالٍ فى مصر .

وقد صحبته مرة إلى زيارة أسرة الآنسة ق ، وهى فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألحّ علىّ يومئذ إلحاحاً شديداً أن أصحبه ، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعاً من متاع أهل الفن

وكنت فى ذلك اليوم صانعاً أغنية عامية فى معنى من معانى الشباب تعبّر عن حال من حالى فى تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافعى لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها وجعلها فى جيبه ...

... وصحبت الرافعى إلى حيث يريد ، فاستقبلتا الفتاة وأمها وشاب من قرابتها ، ثم لم يكد يستقر بنا المجلس ، وأهل الدار حافون بنا يبالغون فى إكرامنا ، حتى أخرج الرافعى الورقة من جيبه فدفعها إلى الفتاة ...

وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردتها إلى الرافعى وهى تقول : « جميل . شعر عاشق! »

قال الرافعى وهو يشير إلىّ مبتسما : « إنها أغنيته ! »

قالت : « إيه ... ! أعاشق هو ! »

قال الرافعى : « نعم !... ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! »

ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتنى الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعى إلىّ نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بى من الحياء أضعاف ما بالفتاة ... وكانت دعابه غير مألوفة ولا منتظرة ، أوقعتنى فى كثير من الحيرة والارتباك ...

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »

وردد الشاب صدى صوتها يقول : « ... رقيقة ! »

وثبتُّ فى مكانى لا أتحرك ، ولا أرى أمامى غير تلك الابتسامة الغامضة على شفتى الرافعى ...

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمته إلى ؛ ثم إلى الرافعى ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبى ... وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت فى مجلسى لا أكاد أفهم ما يدور حولى من الحديث !

وجعلت أسائل نفسى وأكاد أنشق غيظاً : « ترى ماذا حمل الرافعى على هذا القول ... ؟ »

فلما انفض المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعى مغضباً أسأله جلاء السر ، فضحك ملء فمه وهو يقول : « قصة طريفة . . . لقد عقدنا العقدة فانظر فى طريقة للحل ... سيكون فصلاً أدبياً ممتعاً ياشيخ سعيد ، تكون أنت مؤلفه وعلىّ أن أرويه ؛ لقد سئمنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى الحقيقة ... »

وغاظنى حديث الرافعى أكثر مما غاظنى الذى كان منه، فتمردت عليه، ولكن الرافعى عاد يضحك ويقول : « أتراك — إن أبيت — تستطيع أن تمنع نفسك الفكر فيها وأن تمنعها ؟ لقد بدأت القصة فما بدّ من أن تكون لها خاتمة ! »

وضقتُ بهذه الدعابة وثارت نفسى فأخشنتُ القول ؛ فزاد به الضحك وهو يقول : « وهذه الثورة أيضاً هى حادثة من فصول هذه الرواية ... ! »

وأعدانى مرح الرافعى وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُّ على غيظ ضاحك . ولقيتُ الفتاة بعدها مرتين فتناسيت ما كان ولم أسأل نفسى عن شىء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جاءنى الرافعى يوماً يقول : « إن بينك وبين صديقنا الأديب ج لشيئاً ! » قلت : « ماذا ؟ »

قال : « أحسبه يغار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فإنه ليعلم أن بينكما عاطفة ... ! »

وقال لى (ع) الذى صارت ابنته فى دارى من بعد : «أتراك كنت مع الرافعى أمس فى زيارة فلانة ؟ » فتوجست من سؤاله شيئاً ...

وكادت تكون قصة كما أراد الرافعى ولكنى حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

* * *

... من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الرافعى موضوعاته ويبدع معانيه فى المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التى كان يصطنعها أو يسعى إليها ويهيئ أسبابها ، كانت تنجلى له الفكرة ويومض الخاطر وتتشقق المعانى ؛ ومن هذا الجو زخرت نفسه بالعواطف النابضة التى ألهمته من بعد أن ينشئ ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص: الأجنبية، وسموّ الحب، والله أكبر، واليمامتان، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يملى عليه القصة والموضوع، إنما كان يمده بالمعانى والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقظ حسه ؛ فما تزال هذه الخواطر والأفكار مضمرة فى الواعية تزيد وتتوالد وينضم شىء منها إلى شىء حتى يأتى وقتها ؛ فإذا همّ بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعانى انثيالاً حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد .

* * *

ولما قص الرافعى قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله فى الأشهر الستة الماضية منذ بدأ يعمل فى الرساله ، وما عاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمتْ به ، وأحس فى نفسه

شعوراً جديداً ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه فى الفراش بما يحمل فى صدره من هم وما يضنى جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعته قوتان ... وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار فى العمل ... وطال الحديث بينه وبين نفسه فأرّقه ليلة ...

وتركته وروّحت إلى دارى وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالى دعانى ليملى علىّ « قلت لنفسى .... وقالت لى .. »

من أراد أن يعرف الرافعى العرفان الحق ، فليقرأ هـذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه فى الأدب وهدفه فى الحياة .

إن غاية ما ينشده الباحث عند ما يهم بالبحث فى حياة إنسان له أثر فى تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمر نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولـكن ها هنا إنساناً يتحدث عن نفسه وتتحدث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ .

وأشهد أنى رأيته قبل أن يملى علىّ الحديث وأن فى وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاماً ؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة فى حكاية وصف : هذه هى هذه ، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة .

وأكثر معانيه فى هذا الحديث قديم فى نفسه ؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بسنتين أو ثلاث فى قصيدة نشرها فى مجلة المقتطف .

... وكما تثوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكاته إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافعى بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضا ، وكأنما نفض همومه وأحزانه فى هذه الـكلمات وكانت تثقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأى فى محكمة الضمير بين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحـكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية ...

ثم كان هلال رمضان فأنشأ مقالة « شهر للثورة » وهى السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة .

* * *

كانت خير أوقات الكتابة عند الرافعى فى المساء، حين يعتدل الجو، وتسكن الحركة، وتخف المعدة ؛ إذ كان عمله فى المحكمة يملأ بياض نهاره . فلما كان رمضان سنة ١٣٥٣ ( ١٩٣٤ الميلادية ) سألنى : « كيف نصنع يا شيخ سعيد فى هذا الشهر وأى أوقاته نجعلها للكتابة ؟ » قلت : « فانظر فيما تراه خيراً لك، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء » قال : « لا سبيل إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء، ولكنى سأحاول أن أكتب فى العصر، فإنه حيثما امتلأت المعدة ثقل الرأس، فلعل فراغها فى النهار أن يشحذ الذهن ويصقل الفكر » .

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه، ومضى يوم ويوم ويوم، وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئاً للرسالة، واستحيا أن يعتذر، فلمّ طائفة من « فُتات المكتب » وجعلها الجزء الثانى من « كلمة وكليمة » وبعث بها .

فى هذه الكلمات المنشورة بالعدد ٧٦ كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية فى مصر فى أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم باشا، وفيها حديث عن الزكاة والصوم، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة، وفيها رسائل إلى « فلانة » !

ثم كانت مقالة الأسبوع التالى هى قصة « سمو الحب » .

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة : رمضان، وكتاب الأغانى لأبى الفرج، وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب .

أما رمضان فسما بروحه وأمده بما فى القصة من المعانى الدينية التى حكاها على لسان مفتى مكة وإمامها « عطاء بن أبى رباح » والرجل الزاهد « عبد الرحمن القس بن عبدالله بن أبى عمار » .

وأما كتاب الأغانى فأعطاه صلب القصة وأساس البناء فى سطور يرويها من خبر « سلاّمة المغنية » جارية يزيد بن عبد الملك، وقد وقع الرافعى على هذا

الخبر اتفاقاً فى إحدى مطالعاته فى كتاب الأغانى .

وأما أحاديث الشبان فحفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضربه مثلاً لسمو الحب يصحح رأى الناس فيه ويكوّن منه لشباب الجيل درس وموعظة .

فى هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمروءة والحب فى قلب رجل كالرافعى يعرفه الناس فيما يكتب شيخاً من شيوخ الدين فيه تحرج وخشية ، ويعرفه من يعرفه من أصحاب مجنونَ لَيْلَيات وقيسَ لُبنَيات !

... ولكى ينتفع الرافعى بوقته فى رمضان كان يتخفف من طعام الفطور ، ثم يجلس مجلسه بعد العشاء للاملاء ؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السَحور ، فيعوِّض فيه بعض ما فاته من فطوره ثم ينام !

على أنه لم يجد راحته فى هذا النظام أيضاً ؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد فى نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شىء يصلح للنشر ليستريح أسبوعاً من العمل ، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف فى سنة ١٩٠٥ كان قد نشر بها قصته الأولى : « الدرس الأول فى علبة الكبريت » ، فعاد إلى قراءتها ، فلما فرغ من القراءة التفت إلى قائلاً : « هذه قصة ينقصها السطر الأخير » قلت : « وماذا يكون هذا السطر ؟ » . قال : « اسمع : هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحوكم بها وحكم عليه ... » . قلت : « نعم ! » قال : « فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين ؟ » قلت : « أراه الآن رجلاً يفلح الأرض أو يعمل بالفأس فى حجارة أبى زعبل ! »

قال : « هذه الأخيرة أمثل به ؛ لقد تلقى الدرس الأول فى علبة كبريت فقاده إلى الحبس ، فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشنقة ... ؟ ا كتب ... ا كتب » .

وأملى على مقالة « السطر الأخير من القصة » .

لم يغير الرافعى هذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة ؛ وزاد عليها

شيئاً من المحاورة بين الغلام وقاضيه ؛ وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجاباً بها ، ولكن كأنما ردته هذه المقالة إلى شيء من ماضيه تروّح فيه من روح الصِّبى والشباب ؛ فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليبقى فيها روح الصِّبى والشباب !

وفى الأسبوع التالى — وهو الأسبوع الأخير من رمضان — أملى على قصة « الله أكبر » .

وهى بسبيل مما سمع من أحاديث الشبان عن الحب ، ورُقية ثانيه من رُقى الحب الداعر : كانت الرُّقية الأولى هى كلمة « برهان ربه » فى قصة سموّ الحب ، وكانت الرقية هنا هى كلمة « الله أكبر »

وأول الأمر فى هذه المقالة أننى كنت جالساً إلى الرافعى فى القهوة نتحدث فى شأن ما ، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد ، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام ، وقال الرافعى : « ... وأنا لو ارتدّ إلىّ السمع لن يطربنى شيء من النشيد ما كان يطربنى فى صدر أيامى نشيد الناس فى المساجد صبيحة يوم العيد : الله أكبر الله أكبر ! يعج بها المسجد ويضج الناس . . . ليت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام ؟ الله أكبر ! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد ! »

ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفى كل صلاة ، فما فرغ من الحديث حتى طرقنا زائر من روّاد القهوة فحيا وجلس ... وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون ...

وتهيأ موضوع القصة فى فكر الرافعى ، فلما دعانى ليمليها علىّ لم يجد فى نفسه إقبالاً على العمل ، فوقف فى الإملاء عند منتصف المقاله ونسأ البقية إلى غد ، ثم كان تمامها .

وفى صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه وقد كان فى الرافعى حرص شديد على ذكرى أبويه ؛ فهما معه فى كل حديث يتحدث به عن نفسه ، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تهيأت له الفرصة ؛ وما إيثاره الإقامة فى طنطا على ضيقها

به وجهلها مقداره إلا ليكون قريباً من قبر أبيه وأمه . وقد نقلته وزارة الحقانية مرة نقلة قريبة ، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل فى وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل ، وكانت كل حجته عند وزارة الحقانية فى إيثار طنطا : أن فيها قبر أبيه وأمه !... وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه ، فلعله الآن سعيد بقربهما فى جوار الله ولعلهما به . .

... ولما عاد من زيارة المقبرة أملى علىّ مقالة « وحى القبور ! »

* * *

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه ، فأنشأ قصة « بنته الصغيرة » وهى الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص ؛ تحدث فى « قصة زواج » عن سعيد بن المسيب ، وتحدث فى « سمو الحب » عن عطاء بن أبى رباح ، وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصرى

فى هذه القصة يتناول الرافعى موضوع الزواج على النحو الذى تناوله به فى قصة « رؤيا فى السماء » على أنه باب إلى السمو بالإنسانية ، وفيها إلى ما فيها من الدعوة إلى الزواج وبر البنات — شئ من الأدب الدينى يضمها إلى سابقاتها

ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من « كلمة وكليمة » — العدد ٨٤ سنة ١٩٣٥ — وفيها كلمات عن السياسة ، وحديث عن المرأة ، ونظرات فى أخلاق بعض الناس أوحى إليه بمعانيها قضية كانت له فى المحكمة شغله أمرها وقتاً ما . وقصة ذلك أن الرافعى كان اشترى قطعة أرض للبناء فى شمال المدينة ونقد البائع ثمنها وجعل لها حدوداً مرسومة ؛ ثم أعجزه أن يبنيها فظلت خلاء . وكانت هى كل ما حصل الرافعى من الإشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن ؛ ثم طمع البائع أخيراً فيما باع ؛ فتحيّف القطعة من أطرافها ، واصطنع بينه وبين الرافعى مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس ، وشكاه الرافعى وتأهب لمناضلته ، فاستعان عليه خصمه بواحد من ذوى صهره يعمل مفتشاً فى وزارة الحقانية ، فانتدب للتفتيش عن أعمال الرافعى الرسمية فى محكمة

طنطا مهدداً متوعداً ، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه !

طالت القضية بين الرافعى وخصمه، وتعددت جلسات المحكمة، وطالت كذلك دورة التفتيش وكثر تحدى المفتش للرافعى حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله ، فحص فيها عن بضع مئات من القضايا التى قدر الرافعى رسومها ، لعله يعثر له فيها على غلطة تحمله على الخضوع له ؛ وغلطة فى تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غرامة مالية .. ومن أين للرافعى ؟

وكنت متعوداً أن أغدو على الرافعى فى المحكمة فى أوقات الفراغ ؛ فلما علمت أن مفتشاً عنده أقصرت ؛ فلما علم منى سبب امتناعى عن زيارته قال : « لا عليك وخلِّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئاً من عادتك ! »

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده ، وكان يدنينى إليه فى مجلسه ، ويجعل كرسىَّ إلى جانب كرسيه خلف المكتب ، ويتأبَّى على المفتش أن يذهب إليه حيث يكون ، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه ؛ وفى أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا فى مجلسه ليسأله عن أمر من الأمر ، فيدعه الرافعى واقفاً ويتحدث إليه وهو جالس حديثاً كله سخرية وتهكم ، ثم لا ينظر إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل ، ثم يغضى عنه ويدعه واقفاً ، ليعود إلى ما كان فيه من الحديث معى أو المطالعة فى صحيفة أو كتاب !

وعلى أن المفتش لم يظفر بشىء مما أراد بالرافعى ، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد ، على رغم ما كان يبدو على الرافعى من إهمال شأنه وعدم الاكتراث به !

... ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعى ، وانتهت كذلك دورة التفتيش على غير طائل ؛ ولكن هذه وتلك قد شغلتا الرافعى شطراً كبيراً من سنة ١٩٣٥ ، وأوحت إليه بكلمات وكليمات مما نشر لقراء الرسالة فى هذه الفترة

* * *

... ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة ،

فكانت القصة التالية « زوجة إمام » : الإمام أبو محمد سليمان الأعمش ، وزوجه ، وتلميذه أبو معاوية الضرير .

قصة أراد بها أن يستوفى موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب الزوجة. وبها تم ما أملاه علىّ فى موضوع الزواج ، وعدّته ثلاث عشرة مقالة أولها مقالة « س . ا . ع » وآخرها الجزء الثانى من « قصة إمام »

وددت لو أن الرافعى حين أعاد نشر هذه المقالات فى وحى القلم ، نشرها على الترتيب الذى كانت به والذى رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة ؛ فإن ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعة متساوقة فصولها فصلاً إلى فصل ؛ ولكنه جمعها فى وحى القلم على ترتيب رآه ، فجعل منها القصة ، والمقالة ، والحديث الدينى ؛ وجعل كلا من هذه الثلاثة فى بابه ؛ على أن ذلك لا يمنع الباحث الذى يتهيأ للرأى فى هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب الذى قدمت أسبابه وأسبابها معه .

* * *

كان الرافعى قلما يجلس إلى مكتبه فى المحكمة إلا أن يكون له عمل ؛ فإذا لم يجد له عملاً فى المحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة . وكان يزورنى أحياناً فى المدرسة ليقضى معى وقتاً من الوقت أو ليصحبنى لبعض حاجته . وكان يغبطنى على عملى ويزعم أنه لو كان فى مثل هذا الجو المدرسى لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان ؛ ويعجب لى كيف لا أجد فى صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون فى حقيقة الحياة ما يوقظ فى نفسى معنى الشعر والحكمة والفلسفة ...

وزارنى يوما ، وكان من تلاميذى فى المدرسة طفل فى العاشرة أبوه من ذوى الحول والسلطان ؛ فكان يصحبه شرطىٌّ كل يوم إلى المدرسة ويعود به ، وكان فتى لدنا ، فيه طراوة وأنوثة ، وله دلال وصلف ، فاتفق أن حضر إلىّ لشأن ما والرافعى معى ، ووقف الشرطى ينتظره على مقربة من مجلسنا ؛ ونظر الرافعى إليه

وقد وقف يكلمنى وهو يتثنى ويتخلّع لا يكاد يتقارّ فى موضعه ...

ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطى وراءه يحمل حقيبته ، والتفت الرافعى إلىّ يسألنى : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا الشَّمعون ؟ »

وكلمة « شمعون » عند الرافعى هى عَلَم مشترك لكل فتى جميل . وتاريخ هذا الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافعى بالمرحوم الكاظمى الشاعر ؛ إذ كان الكاظمى له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه « شمعون » حدثنى الرافعى عنه قال : « وكان فتى جميلاً لولا ثياب الغلمان لحسبته أنثى ... ! » ورآه الرافعى كثيراً فى صحبة الكاظمى ، فوعى اسمه وصورته ، ثم كان اسمه عند الرافعى من بعدُ علماً على كل غلام متأنث ...

... قلت للرافعى : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطى الذى يتبعه هو من جنود أبيه ، وإن من خبره ... »

قال الرافعى : « وهذا موضوع جديد ! »

فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

* * *

وكان الرافعى يؤمن بالغيب إيماناً عميقاً لا ينفذ إليه الشك . وكان له عن الشياطين والملائكة ، وعن الوحى والإلهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...

... وكان له — إلى إيمانه وتديُّنه — نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم ، فكان أكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا مرت أمامه امرأة فأتبعها عينيه ، أو سمع حديثاً عن غائب فتعقبه بالحديث عن بعض شأنه ، أو ناله أحد بمساءة فردَّها إليه ، استعاذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان ! وإذا همت نفسه بشىء تنكره المروءة ، أو دعته داعية من هواه إلى ما يتحرج منه المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على ما لا تحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرفت عنه ، وذم

الشيطان وتجنى عليه الذنب . وفى مقالته « دعابة إبليس » حديث يحقق هذا المعنى

... فإنى لمحته ذات مساء إذ جاءه البريد برسالة من آنسة فى دمشق ، ومعها صورتها مهداة إليه ، تبثه لواعجها وأشجانها ، وتشكو إليه أنها .. مفتقرة إلى رجل !

ونظر الرافعى إلى صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدها فى وهمه حسناً إلى حسن ، ويرسم له خطة ...

ثم وضع الرافعى الصورة فى غلافها وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان ... أما إنه ... »

وقال شاب فى المجلس : « وهل الشيطان إلا هوى النفس ؟ »

وقال الرافعى : « وهل تنكر .. ؟ »

وطال الجدل ، ومضى الحديث فى فنون ...

من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشيطان »

* * *

وكان لولده سامى زوج لم يدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ما سماها وعقد عليها ؛ فأقامت زمناً فى مصحة حلوان ؛ ثم ارتدت إلى طنطا لتقيم بين أسرتها ما بقى ، وزوجها حفى بها قائم على شئونها ، ثم جاء أجلها فدُعى الرافعى ليراها ، فجلس إلى جانبها لحظات وهى تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصير ، مقالة « عروس تزف إلى قبرها ! »

كنت ليلتئذ على موعد معه فى القهوة ، فظللت أنتظره ساعات ، ولم يخلف الرافعى موعده معى مرة من قبل ، فلما طال بى الانتظار مضيت لشأنى . وفى الصباح جاءنى نعى الفتاة ، فعرفت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت فى نفر من الأصحاب لتعزيته فى دار صهره ، والتمسناه فما وجدناه ، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الجنازة لبعض شأنه ؛ ولقيته بعدها ، فعرفت أنه ترك المأتم والمعزين ليفرغ لكتابة مقاله قبل أن تذهب معانيه من نفسه !

يرحمه الله لم يكن يمر به حادث يألم له ، أو يقع له حظ يُسرُّ به ، إلا كان له

من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكأنما كل ما فى الحياة من مسرات وآلام مسخَّر لفنه ؛ فهى للناس مسرات وآلام ، وهى له أقدار مقدورة ليبدع بها ما يبدع فى تصوير الحياة على طبيعتها وفى شتى ألوانها ، ليزيد بها فى البيان العربى ثروة تبقى على العصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه فى أحد غير الرافعى !

* * *

وإذْ ذكرت السبب الذى دعا الرافعى إلى إنشاء مقالة « عروس تُزف إلى قبرها ! » أرانى مسوقاً إلى ذكر حديث بينى وبين الرافعى يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الرافعى وطبعه ، وهو بسبب مما سميته فيه من قبل « فلسفة الرضا »

لم يكن لأحد رأى فى خطبة هذه العروس إلى سامى ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ما تخرج وصار له مرتب يكفيه[1] ، ذهب يعرض أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سبَّبه ، ولكنه مع اعتداده برأيه فى هذه المعارضة ، تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ، فليس له عليه فى هذا الشأن إلا أن يبذل له النصح ، ثم يدع له الخيرة فى أمره .

وخطب سامى فتاته ، وعقد عَقده . وكان حموه يعمل فى مال فأكلته الأزمة ، وقُدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأنفق ما أنفق فى طبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان !

وتداعت فنون الحديث يوماً بينى وبين الرافعى حتى جاء ذكر سامى وزوجته ، وكانت ما تزال فى مصحة حلوان ؛ فقال لى الرافعى : « انظر ! إنها حكمة الله فيما يجرى به القدر! ضلَّت البشرية إن هى حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم فى أقدار الناس ... ليس للانسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط

(١) كان سامى معيداً فى كلية الزراعة قبل أن يذهب فى بعثة الجامعة إلى أمريكا

أسباباً بأسباب ، ويجرى بالحياة وحدة متماسكة ، فما يجرى هنا هو بسبب مما يجرى هناك ، فلا انفصال لشيء منها عن شيء ... تُرى مَنذا كان ينفق على هذه المسكينة ليطبَّ لها من دائها لو لم تكن الأقدار قد أحكمتْ نظامَها وكان سامى هو زوجها؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدّمت له من الرأى والنصيحة إلا لأنه فى تدبير القدر مرجوٌّ لهذا الواجب من بعد . لقد كنت مستيقناً من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإننى اليوم وقد انكشف لى هذا السر العجيب فى حكمته البالغة ، لأشعر بكثير من الرضى إلى ما كان ! »

* * *

ثم كتب مقالة « بين خروفين »

وهى تمتُّ بسبب إلى مقالة « حديث قطين » ؛ وفيها حديث عن ولده عبدالرحمن وهو أصغر بنيه ؛ وكان الرافعى يرجوه ليكون من أهل الأدب ؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليكون كما يرجو أبوه ، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمل. وكان (الإيحاء) هو وسيلة الرافعى إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل ؛ ويبدو مَثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافعى عنه فى أول ذلك المقال .

وكان الرافعى معنياً بمستقبل أولاده عناية كبيرة ، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى . وكثيراً ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة ، وقد وجدت بين أوراقه حديثاً له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجاً ليهيء نفسه للامتحان ، لو أنه اتبعه لكان اليوم غير ما هو !

ومن أجل أولاده أنشأ كثيراً من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها فى المقطم ؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها !

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى ، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد ؛ فما نزعه إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفان ، ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً فى الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسى

* * *

وكان للرافعى رأى فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا، تفسره مقالة «تاريخ يتكلم»

وقد دعاه إلى إنشاء هـذا المقال أخبار تناقلتها الصحف فى ذلك الوقت عن أحداث تجرى فى تركيا ، رأى فيها مَشابه من حوادث سبقتها فى مصر قبل ذلك بألف سنة فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وفى أحيان كثيرة كانت تثور نفس الرافعى لما يسمع من أخبار تركيا فيهمّ أن يكتب ، ثم يمنعه ذلك خشيتُه أن يكون فيما يكتبه شىء يقفه موقف المسئول عن غلطة تعكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله، وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية ؛ وكانت هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان الغموض فى كثير من معانى هذا المقال ؛ فمن شاء فليعد إليه ليقرأه وقد عرف داعيه ، فلعله لا يجد غموضاً فيه من بعد .

ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه ، كان مقاله « كفر الذبابة » الذى أنشأه على أسلوب كليلة ودمنة بعد ذلك بأشهر .

* * *

ثم هلّ هلال المحرم ، وتهيأت الرسالة لإصدار (العدد الممتاز) فى ذكرى الهجرة ، فكتبتْ إلى الرافعى فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن يهيئ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلاً . واستبق الرافعى الميعاد فأعد قصة « اليمامتان » وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع . وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعى المعتاد ، وأنه ما يزال يعدّ موضوعه للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ، وكتبت إليه تستنجزه المقال الثانى . وكان الرافعى متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً فى أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوّتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التى أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته فى حيرته ، ولم يجد فى نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خليق بالنشر فى هذه المناسبة ، فوقع

على مقالة « حقيقة المسلم » ، وكان كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشاف المسلم بالشام ، ونشرها بالأهرام فى ذكرى المولد النبوى لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لتنشر فى العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ

يتحدث الرافعى فى قصة اليمامتين عن الفتح الإسلامى ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة فى قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها ما فى نفسه من معانى الحب ؛ ثم جعل فى خاتمتها « نشيد اليمامة » : اليمامة التى تقول الرواية العربية إنها تحرمت فى جوار عمرو بن العاص فمنعته أن يقوّض فسطاطه !

كان لهذه القصة عند الرافعى وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحى من أساتذة التاريخ فى بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافعى رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ، ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه .

ولم أعثر بعد على هذه الرسالة بين ما خلّف الرافعى من رسائل أصدقائه إليه

ومن اعتداد الرافعى بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ، جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه « وحى القلم » .

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعانى من وجع الضرس وتعب الأعصاب ، فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الثالث من « كلمة وكليمة »

* * *

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعى اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال :

جلست يوماً إليه نتحدث من أحاديثنا فقال : « ... إن صديقنا الأستاذ ( م ) لم يكتب إلينا من زمان ... ليت شعرى ما منعه عنا ! إن بى قلقاً عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره ! »

وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض : « ... أن شاباً من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده ! .. »

وقرأ الرافعى الخبر فاربدّ وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! »

قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا ( م ) لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره . غفر الله له ؟ »

فجزعتُ وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغصّ بريقى : « م ؟ إنك لتتوهم ، وإنك مما تفكر فى شأنه ليُخيَّل إليك . إن لصديقنا لديناً ، وإن فيه لتحرُّجاً وخشية ، وما أراه فى أى أحواله يقدم على مثل هذه الجريمة »

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان . ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى م يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يحسن أن يصفها إلا من أحسّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ . م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ؛ وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذّود عن حرماته ، وهو شاب عزب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛ وعلى أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة ، فإنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت فى وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفيناً من معانى الألم ، وما يرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريباً فى هذا العالم وبين هذا الناس ، فإن له من خياله دنيا غيرَ دنيا الناس ، وعالماً غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هذه الأرض . وكان بينه وبين الرافعى ودٌّ وله فى نفسه مكان ؛ فكان له سره ونجواه منذ كان فتى يافعاً لم يبلغ العشرين . وكان الرافعى يعتدّ بصداقته ويقرّ إليه ويُعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلاً مجيداً بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقى من دنياه . فمن أجل هذه الحادثة أنشأ الرافعى مقالات « الانتحار » .

ولم يكن الرافعى يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هـذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ؛ فما جاء جواب الأستاذ ( م ) إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان «أبى محمد البصرى» وهو يعنى به الأستاذ ( م ) ، فهو هو وكلامه كلامه فى جملته ومعناه ، لم يغير منه الرافعى إلا قليلاً من قليل ، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالةُ الرابعة من هـذه المقالات الستّ ، أما ما عداها مما سبق أو لحق ، فهى قصص مفتعلة من وحى هذه الحادثة فى نفسه

ومقالات الرافعى فى « الانتحار » هى باب من الأدب لم ينسج على منواله فى العربية ؛ فيها فنه القصصى ، وفيها روح المؤمن الذى لم تفتنه دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلبُ رجل يعيش فى حقيقة الحياة

* * *

وكان بين الرافعى والأستاذ حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة . فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعى يرجوه أن يكتب فصلاً لقراء اللطائف عن « سحر المرأة » ؛ فكتب فصلاً بديعاً يصف فيه نفسه وصاحبته ( فلانة ) فى أول لقاء بينهما

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف « أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب

* * *

وكان من زملاء الرافعى فى محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له ولوع

بالأدب . وعلى أنه زوج وأب ، فإنه كان بأناقته ولباقته مرعى أنظار كثير من الفتيات ، وكان له فى الغرام جولان ...

ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية فى إحدى الصحف الصغيرة التى تصدر فى طنطا ...

وقرأ الرافعى بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « عِلماً جديداً » لم يدخل إليه من باب ولم يقرأه فى كتاب ؛ فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات إليه ليُفيد علماً من علمه ومن تجاربه ... !

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعى ويقص عليه ، والرافعى صاغ إليه ملذوذ بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافعى أن يُحضر له طائفة من مذكراته ورسائل صواحبه ، لعله يجد فيها موضوعاً يكتبه لقراء الرسالة

فمن هذه المذكرات ومن هذه الرسائل استملى الرافعى مقالات « الطائشة » و « دموع من رسائل الطائشة » و « فلسفة الطائشة »

هى قصة حقيقية لا افتعال فيها ، وليس فيها شىء من صنع الخيال ؛ وما حكى الرافعى من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هى فلسفتها كما فهمها الرافعى من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها .

ولقد نال الرافعى من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات، وقرأها أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافعى ليحتج بها فيما يحتج لمذهبه فى الحب والمرأة وتجديد الأخلاق . والحقيقة فيها هى ما قدَّمت ؛ وقد زاد الرافعى إيماناً بمذهبه بعد هذا الذى سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته ومن رسائله !

ولم يكتب الرافعى قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب قصتها على طريقة من فنه ؛ فآثر الرافعى أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه ويتحدث عن رأيه فى طائفة من فتيات العصر ؛ فترك صلب القصة ليكون حديثه عن التعليق والحاشية .

وقد قرأت القصة مع الرافعى كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافعى يقف عند كثير من عباراتها موقفاً بين الإعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما فى نفسه كما هو فى نفسه ، فكان فيها وحى عاطفته ونبض قلبه ويقظة روحه ، فجاء بأدق ما فى الفن وأبلغ ما فى التعبير غير قاصد إلى شىء من ذلك ، وما كان يبلغ شيئاً من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان فى هذه المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل الصدق عند الرافعى فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبته .

ولما كتب المقالة الثالثة « دموع من رسائل الطائشة » خلا إلى نفسه أسبوعاً ليستجم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : « كلمة وكليمة » وفيها حديث عن العقاد[1]

وفى هذا الأسبوع كان الرافعى يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان « فلسفة الطائشة »

ثم أملى علىّ مقالة « كفر الذبابة » يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت إليه فى شئون الإسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كليلة ودمنة .

وكانت مقالة « كفر الذبابة » هى آخر ما أملى علىّ من المقالات ؛ وذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه فى « سيدى بشر » ، وتهيأت للسفر إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأسبوعاً أزوره فى طنطا ، وأسبوعاً يزورنى فى القاهرة . على أن الرسائل فيما بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته ببضعة أشهر . ثم تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، وكان آخر مجلس لنا فى قهوة « بول نور » بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكر ، وزكى مبارك ، وكامل حبيب ، وزيادة ؛ ثم افترقنا

---

(١) العنوان ١٠٥ سنة ١٩٣٥

بعد منتصف الليل وفى نفسى منه أشياء ... !

وفى صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكى مبارك حول « وحى القلم »

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقانى ؛ وهو يشكونى إلى صحابتى وأشكوه ؛ حتى جاءنى نعيه ... غفر الله لى !

لكأنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عنى وقع المصاب من بعد ؛ أو لتحملنى — غير محمول من أحد غير واجبى — على كفارة الذنب الذى أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما فى الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة التاريخ لعلى أقوم له بعد موته بالحق الذى عجزت عن وفائه فى حياته . يرحمه الله !

* * *

... لم يُمْلِ علىّ الرافعى شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلىّ أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره فى المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر النبوغ فى الأدب »

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقالة « كلمات عن حافظ » لمناسبة ذكراه ؛ ثم أصابته قرحة فى كفه منعته من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ فى الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ثم جعلها مقالة الأسبوع التالى . وهى مقالة من مقالات الرافعى الفريدة ، تهم الباحث الذى يريد أن يدرس الرافعى صاحب « تاريخ آداب العرب »

* * *

ثم توالت مقالات الرافعى يمليها على نفسه ويكتبها بخطه ؛ على أنى بما كنت ألقاه وبما كان بينى وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر ، لم يفتنى أن أعرف دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص — تماماً لهذا البحث — على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التى أنشأها وحده من بعد، غير معتبر ترتيبها فى النشر ، إذ لا عماد لى فيما أكتب عنها إلا الذاكرة .

من هذه المقالات : الجمال البائس ، القلب المسكين ، المشكلة ، المجنون ، أحاديث الباشا .

أما مقالات « الجمال البائس » فقد أملاها عليه حبٌّ جديدٌ وليلى جديدة ؛ ولكنه حب كما وصف الرافعى :

« ... وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً فى الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى . ثم لا تدفعنى إليه إلا فطرة الشعروالإحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها غير أنه هو منها ! »

« ... ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها، ولا شىء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

« والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىء نهائى؛ فلا هجر ولا وصل ، ينساكِ بعد ساعة ولكنك أبدا باقية بكل جمالك فى نفسه ، والصغائر التى تبكى الناس وتتلذع فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة فى همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب ، تبكيه هو أيضاً وتعتلج فى قلبه ، ولكنها تظل عنده صغائر ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبره على جبار الحب ! »(١)

* * *

حُبٌّ ، هو سموٌّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السموات يتنوَّر فى عوالمها الخفية نورَ الإنسانية فى حقائقها العالية .

كان ذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الرافعى يصطاف فى سيدى بشر ؛ ثم كان يقصد إلى الأسكندرية أحياناً ليلتقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ ...؛

---

(١) اجمال البائس ج ١ ص ٢٩١ — ٣٣٣ — وحى القلم

فإن بينهما لصلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة ، منذ كان الأستاذ حافظ محامياً فى طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته فى الأسكندرية ، مشغولاً بكتاب يهم أن يصدره فى شأن من شئون الإسلام وكان الرافعى يعاونه فى إنشائه ...

وكانا يتواعدان على اللقاء فى ملهى من ملاهى الأسكندرية على شاطئ البحر ، حيث تتهيأ لهما الفرصة ، من هدوء المكان فى النهار وقلة إقبال الناس عليه ، لما هما فيه من عمل .

فى هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة « بيا » فيعج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى ، ليفرغ للرافعى وصاحبه فى النهار يُداولان الرأى فى شئون الأدب والدين والفلسفة . وشتان ليله ونهاره !

وكثر تردّد الرافعى وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا ما فيه ، وألفهما فيمن أَلِف فتاة من راقصات الفرقة ، هى الإيطالية الحسناء « بـ ... » فما كان بينها وبين الرافعى إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ...

وجلس الرافعى إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهده الأستاذ حافظ من بدايته إلى منتهاه ، ثم ترك الرافعى لهواه وتركته صاحبته ...

وذاق الرافعى مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته الأخيرة راقصةً من بنات الهوى تعمل فى مسرح هزلى من مسارح الصيف المتنقلة بين شواطئ الأسكندرية ... !

تلك هى صاحبة « الجمال البائس »

* * *

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعى إلى طنطا ، وعادت الفرقة الراقصة إلى القاهرة ، وشتّ ما بين الحبيبين !

ولقيتُ الرافعى بعدها ، فحدثنى حديثه والكلمات ترتعش على شفتيه وفى عينيه

بريق عجيب ؛ ثم رقّ صوته وتهدج وهو يقول : « مسكينة ؛ ليتنى أستطيع أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر ... ليس موضعها هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات « الجمال البائس » فدعانى أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه ليراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له تذكرتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى « دار الهلال » وأبطأ عليه الرسول فلم ينتظر ، فنهض ونهضتُ معه واتخذ طريقه إلى « عماد الدين » ...

ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألنى : « أين اسمها ؟ وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هى ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها فى إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ، ما منهن إلا لها جمال وفتنة ، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ، إلى صورتها !

ثم تحول عن الباب مسرعاً عجلان وهو يجمجم بكلام لا يبين .

وقال لى وقد أسرعت إليه حتى حاذيتُه : « أيليق أن ندخل إلى هذا المكان ؟ أتراه من المروءة ؟ وددت لو رأيتها ، ولكن ... »

وانتهينا إلى قهوة « پول نور » فجلس وجلست ، ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجمال ؛ فما هى إلا لحظة ثم مرت بنا منحدرة من شارع فؤاد إلى شارع سليمان باشا ، فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت فى مزدحم الناس ثم عاد إلى نجواه وشكواه ..

وجلس مرة يتحدث إلى صديقه الأستاذ حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات « الجمال البائس » فأهدى إليه صورتها ؛ فما زالت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة فتفهم ما كتب من مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !

وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمتْ ... ؟ أتراها قرأتْ .. ؟ »

وما أحسبه لقى صاحباً من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال البائس ..

جاست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافعى ونذكر من خبره فقص علىّ ، قال :

« كان الرافعى يجلس على هذا الكرسى، من هذه الغرفة، وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بينى وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ الرافعى يصفها لى وصفاً لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول على تصويرها كما هى فى نفسه ؛ فما كانت عندى بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة ، وتمثلتْ صورتها لعينىّ كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها ؛ قدم إلىّ صورتها فى ورقة لأرى بعينى مصداق ما سمعت ...

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التى صوّرها لى حديثُ الرافعى وإلى الصورة التى فى الورقة ، فكأنما استيقظت من حلم جميل ! ... يرحمه الله ، لقد كان شاعراً ... ! »

كذلك كان سلطانها فى نفسه وأثرها فى خياله !

* * *

وكانت نشأة هذه الفتاة فى طنطا لأول عهدها بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت « خيمتها » فى طنطا بضع سنين ، ولم يكن الرافعى يعلم ذلك حتى عرفتُها فى فرقة « بيا » ورأيتُ صورتها ؛ فلما أخبرته به أغمض عينيه وراح فى فكر عميق ... أتراه كان ينظم شعراً لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟

والعجيب أن الرافعى وهو فى غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبته « فلانة » ولم يفتر حبه لها ، بل أحسبه كان أكثر ذكراً لها وحنيناً إليها مما كان ، وكأنما كان قلبه فى غفوة فأيقظه الحب الجديد وردّه إلى ما كان من ماضيه

لقد كان قلب الرافعى عجيباً فى قلوب العشاق ؛ ليت من يستطيع أن يكشف عن أعماقه !

وبسبيل من وحى هذا الحب الجديد وما أذْكَرَه من ماضيه ، كانت قصة « القلب المسكين » التى نشرها فى الرسالة نجوماً من بعد ؛ ثم ضمَّها إلى أصول الجزء الثالث من وحى القلم الذى لم يُطبع بعد .

* * *

أما موضوع « المشكلة[1] » فقد استملاه الرافعى من رسائل قرائه إليه . وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل ... وهى كانت أولَ صلته بالرافعى ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلةَ اثنين : هو وهى . فصارت من بعدُ مشكلتَهما ومشكلةَ الرافعى معهما إذ لم يجد لها حلاً . ولقد شغلتْه هذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم اتصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابه بصاحبها وصاحبته . وقد كتب الرافعى ما كتب فى هذا الموضوع ، ثم مضى وخلّف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدتها ...

كان ذلك فى الخريف من سنة ١٩٣٥ حين جمعتنى ظروف العمل بصديق الأستاذ كامل ؛ فلم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعنى كل السر ...

... فقدَ أمه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها فى بيت أبيه . وكان أكبرَ ثلاثةِ إخوة ، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معانى الرجولة وما يزال فى باكر الشباب . ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير ، فسمَّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دوراً فى هذه القصة ، فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب ... ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبغى أن يكون . وكان يبغضها بغضَ الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية ، وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية ،

---

(١) وحى القلم جـ ١ — ص ٣٥٨ — ٣٩١

فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ، وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهيئ نفسه ليكون من أساتذة ( العلوم ) فإنه كان ولوعاً بالأدب مشغوفاً بمطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب فى قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى الملحمة ...

وأحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته ، فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها ، وما كان لها ...

وأجمع أمره على أن يتزوجها لينعما بالحب ويحققا المثل الذى ينشدانه ؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة . . . فما يذكرها ولا يفكر فيها ...

وكان نائماً يحلم حين ترامى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ، فما وجد أبوه وسيلة لإنقاذه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاء بوعد مضى فى ذمة التاريخ ... !

غضب الفتى واحتج وثارت كبرياؤه ورجولته ، وأبى أن ينزل على رأى أبيه فى شأن هو من خاصة شئونه ؛ ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبته على إرادته ، وساقته فى عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها فى السيارة من ليلته مرغماً إلى بيته فى القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هى بنت خاله ، وهى زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ؛ ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ وإن فتاةً أخرى تنتظره ؛ وإن عليه لها واجباً تحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنح زوجه نظرةً أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار فى القاهرة ... كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبته التى فتنته واستولت عليه ؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضعَ عشرة سنة

إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حرياً أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التى كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سَجَّانه الذى يحرمه أن يستمتع بالحرية التى وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأرَّثت فى نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ... !

وعاشت فى بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف: لا يقاسمها الفراش، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشتها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا فى الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفى المساء حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل ؛ وما كان بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التى تؤج فى صدره ، والحسرةُ التى تتسايل دموعاً من عينيها ، وإلا هذة الخادم التى تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها ...

ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبته والاختلاف إلى ملتقاها

على أن ذلك لم يزده إلا ولوعاً بحبيبته وتبرماً بزوجته ... ومضت الأيام تباعد من ناحية لتقرِّب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذى وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل ... فمضى يدبر أمراً للخلاص من هذه المشكلة ، ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل ... !

كان كل طريق يفكر فيه للخلاص محفوفاً بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجه ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ؛ وليس فى استطاعته أن يجمع على نفسه همَّين ؛ وكان تفكيره فى ذلك همًّا ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه !

وكتب إلى الرافعى يستفتيه فى مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعى ؛ وفى مساء اليوم التالى كنت فى مجلس الرافعى بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفضّ غلافها بعد ...

وقرأ الرافعى الرسالة ثم دفعها إلىّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلَّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدى قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ، وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأيي »

وأطرق الرافعي هنيهة يفكر وفمه إلى الكركرة ( الشيشة ) كما هي عادته حين يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إليّ قائلاً : « تعرف ؟ إن صاحبك لمفتون بصاحبته إلى درجة الحمق والسفه ، وما تنحلّ هذه المشكلة إلا أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ، وأن يكون له سلطان على هواه ، وهيهات أن يكون له ! فما هنا إلا وسيلة واحدة تردّه إلى رشاده فتنحل المشكلة .. »

قلت : « فما هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان فتفرق بينهما ... أتراك تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر ، وإذا بدا لها . . . انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادماً ؛ وإن مرور الأيام لخليق أن يؤلف بينهما من بَعد »

قلت : « فهمت ، ولكن ماذا ترانى أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ما تريد ؟ وهبني عرفتُ أن أقول له فمن أين لى أن أستطيع لقاءها فأتحدث إليها ؟ »

قال : « اسمع : أتراها تقرأ ؟ »

قلت : « إنني لأعرف مما حدثني عنها أنها قارئة أديبة ، وأنها من قراء الرسالة ، وقد كان فيما أهدى صاحبها إليها كتابُ أوراق الورد ، وأحسبها تنتظر ما تكتبه في هذه المشكلة ؛ فقد حدّثها صاحبها أنه كتب إليك ... »

قال : « حسن ! فسأجرب أن أكون شيطاناً بينهما ، بل ملَكاً يحاول أن يرد الزوج الآبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية .. ! »

* * *

وكتب الرافعي المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها أن ينتقص صاحب المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بقدره عند

صاحبته ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وإن فيها لَمَا يعيبها ويثلبها ويضعها بإزاء صاحبها موضعاً لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه فى الرأى ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد فى تصويرهما الصورة التى أراد أن يكون عليها الحكم فى محكمة الرأى العام ، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها فى القضية فيمن يرى من القراء .

ولقيت صاحب المشكلة من الغد ، فسألنى : « هل رأيت الرافعى »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتى إليه ! »

قلت : « بلغتْه ! »

قال : « وماذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيه فى الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بينى وبين الرافعى من حديث وما دبر من خطة ... ونُشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبى غاضباً يقول : « كيف صنع الرافعى هذا ؟ لقد تحلى من القول ما لم أقل . أترانى قلت عنها كما يزعم : لقد خلطتْنى بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها فى حرام وصلت ...! لقد ساءها ما تحلى الرافعى من الكلام ، وقد تركتها الليلةَ غاضبة لاسبيل إلى رضاها ! »

... وتحقق للرافعى بعض ما أراد ، وانثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم فى هذه المشكلة ، وجاءه فيما جاء من الرسائل ، رسالةٌ من صاحبة المشكلة نفسها ...

وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقِّياً حسناً ، ومضى يتحدث عنها حديثاً ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ، ولكنه إيحاء ، إيحاء إلى الفتاة بأنها فى مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس حباً وإن زعمت لنفسها هذا الرأى ؛ ولكنه شىء يشبه أن يكون صورةً عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به ... ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكلة بالإيحاء والإغراء والحيلة ...

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقاً على آراء القراء وسخرية ونصيحة .

وفرغ الرافعى من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت سنوات وفى الأتون ثلاثة قلوب تحترق . . . وعلى مقربة من النار صبى يحبو ينادى أباه ، وأبوه فى غفلة الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلُّها على يدى هذا الصغير وقد عجز الكبار عن حلها بعد مجاهدة سنوات ؟ أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة فى أتون الشهوات .. !

ومعذرة إلى صديق كامل .. !

* * *

أما حديث « المجنون » فأعرف من سببه ما ذكر الرافعى فى أول مقاله[1] ؛ والمجنون فى هذه المقالات هو شخص حقيق كما وصف واصفه ؛ رأيته لأول مرة فى مجلس الرافعى ذات مساء فى قهوة « لنتوس » ، فرأيت شاباً أمرد يلبس جلباباً رخيصاً وعلى رأسه عمامة ، وقد جلس بين يدى الرافعى مجلسَ من لا يحتشم ؛ فأنكرتُ موضعه ؛ وأشرت إلى الرافعى أسأله ، فقال : « سَلْهُ أنت من يكون ؟ »

فالتفت الفتى مغضَباً يسأل : « أو ليس يعرفنى ؟ أوينكر موضع نابغة القرن العشرين ... »

... ثم كان مجلس طويل وصفه الرافعى فيما وصف من مجالس المجنون .

وهو فتى كان طالباً فى مدرسة المعلمين الأولية بطنطا ، ثم أصابه ما أصابه فانقطع عن المدرسة ولكنه لم يقطع صلته بالأدب . وصدقنا الأستاذ حسنين مخلوف يعرف هذا النابغة ، فإنه كان بين تلاميذه فى مدرسة المعلمين .

أما المجنون الآخر الذى وصف الرافعى من حاله ما وصف بعدُ ، فهو طالب فى إحدى كليات الأزهر . ولم ألقه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافعى عنه ما كتب :

---

(١) وحى القلم ج ٢ — ص ٣٥١ — ٤١١

كنت يوماً فى إدارة الرسالة ، حين دخل علينا فتى أزهرى ، فى جلباب حائل اللون ، فحيا وقال : « ألست تعرفنى ؟ »

فحيرنى هذا السؤال ولم أدرِ بمَ أجيبه ، فقال : « إن بيننا نسباً وقرابة ، وإن بينى وبين الرافعى ... إننى أنا الذى يكتب عنه الرافعى مقالات المجنون ! »

قال ذلك وفى وجهه أمارات الجد ، وبدا لى كأنه يفاخرنى بما يقول ! قلت : « ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ! » قال : « نعم ، فهل عرفتَ الآن من يكون الآخر ... ... ؟ »

وقد كانت صلة الرافعى بهذين الفتيين باباً من العبث والمجانة ؛ على أنهما قد استطاعا أن يحملاه على العناية بأمرهما والتفكير فى كتابة شىء عن المجانين ...

وقد احتفل لهذه المقالات احتفالاً كبيراً . فبعث إلىّ فى القاهرة لأشترى له نسخة من كتاب «عقلاء المجانين» ؛ ثم بعثنى بكتاب خاص إلى الدكتور فؤاد بك مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة — وكان زميله فى المدرسة الابتدائية — يرجوه أن يأذن لى فى زيارة مستشفى المجانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم ، لعله يجد فيها مادة تعينه على تمام موضوعه

ولم يَفُتْه مع ذلك أن يلتمس علم ما لم يعلم عند كثير من الأطباء ؛ فكان له حديث طويل عن المجانين مع الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد الرافعى ، والدكتور عبد الحميد المحلاوى طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه

وقد أفاد من حديثهم ، بعضَ النوادر الطريفة التى حكاها فى مقالاته ونسبها إلى نابغة القرن العشرين وزميله ؛ على أن أكثر ما فى هذه المقالات هو صحيح فى جملته وفى نسبته إلا بضع نوادر !

* * *

أما «أحاديث الباشا» فأكثرها خيال وأقلها حقيقة ، وقد اختار الرافعى أن يجعل بعض حديثه فى الشئون الاجتماعية على هذا النظم حتى لا يُمِلّ قراءه

وقد تخيّل أخاه الأستاذ محمود الرافعى المحامى بدمنهور ، كاتمَ سر الباشا الذى سَمَّاه ونسب إليه ، لأنه كان يستوحيه كثيراً من الحقائق فيما يكتب ، وقد كان الأستاذ محمود الرافعى فى صدر أيامه زعيما من زعماء الشباب فى طنطا ، يقودهم ويرى لهم الرأى فى مسائل الوطنية وتدبيرات السياسة فى إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وكان يومئذ طالباً فى مدرسة الحقوق

أما ( م ) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقة كان منها وكان مما روى الرافعى ولـكنها شخصية من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال :

على أن أكثر ما روى الرافعى من الروايات على لسان ( م ) باشا هو حقائق ، ولـكنها لا تنتسب جميعاً إلى شخص واحد